(2)

غياب المنهجية وتداخل المفاهيم

من إشكاليات الخطاب الديني الرسمي أنه يركز على الجانب العاطفي الانفعالي بحشد أطايب الكلام وجواهر الألفاظ يبعثرها على الجمهور، و يتصيد من هنا وهناك كلاما لا رباط بين أجزائه إلا أنه كلام في الدين، وتغيب وحدة الفكرة، ودقة وعمق التناول، ومع سيطرة لغة الوعظ الإنشائية التي تحرص على إظهار غزارة المحفوظات تغيب منهجية العرض الجيد الذي يسوق الموضوع في لوحة مكتملة من المقدمات المنطقية التي تقود القارئ أو السامع للنتيجة، إذ لو ارتضت منهجية العرض إغفال بعض الجزئيات فسيكون ذلك في حق النتائج لا المقدمات، فالخطاب الدعوي مطالب بأن يسوق المقدمات كاملة، وله أن يسكت عن بعض النتائج التي يُراد من الجمهور المشاركة العقلية في استكشافها والتعرف عليها، بما يحدث تفاعلا حيويا بين الملقى والمتلقي.

الخطاب الديني ينقصه الرصد المسبق لمشكلات المجتمع وظواهرها السلبية، فكثيرا ما يكون المجتمع في وادٍ والخطاب الديني في وادٍ آخر، يتعجل الحلول في خطاب مبتسر يناقش قضايا وأفكار لا تمثل أولوية المجتمع، بل وتُعبِّر عن بيئات أخرى أحيانا، ولا يأخذ في اعتباره القضايا المرحلية التي يعيشها المجتمع، أو التساؤلات الملحّة التي يطرحها الواقع الجمعي لهذا الجمهور، لا يمنح نفسه فرصة إعادة الاجتهاد والتفكير في مشكلاته بل يبحث عن إجابات لها في نتاج القدامى، ويحرم نفسه من الاستفادة بما انتهت

إليه الدراسات الاجتماعية والنفسية وتوظيف الدراسات اللغوية الحديثة وفنون التواصل وعلوم الإدارة والتخطيط ومنهجيات البحث العلمي.

ومن إشكاليات الخطاب الديني الرسمي أنه يخلط بين المقدس وغير المقدس، فأكسب القديم كل القديم حالة من القداسة بكثرة الترديد دون أن يميز بين «الدين» مجموعة النصوص المقدسة و«الفكر الديني» الاجتهادات البشرية لفهم تلك النصوص وتأويلها واستخراج دلالتها، وهنا تأتي أهمية البحث النقدي التحليلي في قراءة كتابات القدامى؛ لتزيل عنها قداسة اكتسبتها بالتكرار والترديد رغم أنها نتاج عقول بشرية، وتعيدها من جديد إلى سياقها الفكري البشري لتناقش الأفكار أفكارا بلا عصمة ولا تشويه.

فالخطاب الدعوي المرجو ينبغي أن يعيد النظر في طريقة انتقاء النصوص وجلب الشواهد، وأن يفسح مجالا للنظر العقلي في المفاضلة بينها، واختبار صحتها، فتجديد الخطاب الدعوي يحتاج إلى التفكير أداة للمنهجية، والبرهنة النقلية والعقلية أداة للإقناع، والمدارسة والتحليل والنقد وتنظيم الأفكار كمكونات منهجية ضرورية لا بديل عنها.. فليس هناك تجديد حقيقي دون تفكير، وكل محاولة تجديد بلا منهجية عقلية واضحة تتحول إلى شعارات براقة تتلاشى في الفضاء.

وإفساح المجال لمزيد من المنهجيات العقلية في الاختيار والتناول والعرض ومعالجة النصوص ليس هينًا في وقت ينظر البعض[1] بارتياب لمحاولات التجديد واصفًا إياها بمحاولات لتخريب الدين، ويرى أن التجديد

(1) محمد شاكر الشريف. تجديد الخطاب الديني بين التأصيل والتحريف. ط مجلة البيان. لندن. سلسلة كتاب البيان. 1425هـ - 2004م.

في حقيقتـه هـو تطهير الخطـاب الديني من محـاولات المعاصريـن العبث به بإخضاعه للتفكير، وأن اقتراب العقل من الدين خطرا ينبغي الاحتراز عنه، جاعلـين من التراث كتلة واحدة يختلط فيها النص بمحاولات فهم النص، فلا فرق بين الوحي المنزل وما كتبه العلماء الأوائل حوله، كله له قداسة الدين، فكل محاولة للتجديد هي محاولة للتحريف.

ومثل هذه الرؤى المحافظة المنغلقة على نفسها بدافع من الشعور بالمؤامرة ليسـت مرتبطة بعصرنا فحسب، بـل هي فعل متكرر في كـل الثقافات عبر العصـور، ومثل هذه المواجهات بين المجدديـن والمحافظين قديمة في تراثنا، فمدرسـة أبي حنيفـة التي أصبحت جـزءًا من موروثنا الـتراثي كانت محاولة تجديدية مستهجنة من مدرسة الحديث في عصرها، فمدرسة الإمام أبي حنيفة عُرفـت بمدرسة الـرأي التي تستنـد إلى العقل، وتقـدم الاستحسان على خبر الآحاد، فازدرى أصحاب مدرسة الحديـث أصحاب مدرسة الرأي، وأطلقوا عليهم سخرية «الأرأيتون» المشتقة من «أرأيت لو كان الأمر كذا» غير أنه رغـم اختلافهم لم يصل بهم الأمـر إلى الإقصاء والمصادرة الكلية كما يحدث الآن.

ومن الإشـكاليات مـا تواجهه محاولات تجديد الخطـاب الديني من حالة تفريـغ من الداخل حين يحـاول دعاة التجديد نقل نتائـج محاولات التجديد التراثية، فيذهب إلى التراث لاستعارة نتائج مدرسة الرأي أو مدرسة ابن رشد أو مدرسة المعتزلة أو غيرهم ممن أفسحوا للعقل مجالا في الدرس قديما، فيتحول الخطـاب من تجديـد فكر إلى ترديد أفكـار، فيستعير ثمـرة فكرية ارتبطت بزمنهـا وجغرافيتها وصراعاتها مع خطابات أخرى لا تخلو من حضور فيها،

لـذا نحن في حاجة إلى الاستفادة من طرق التفكير ومنهجيات الدرس العقلي في تلـك المـدارس دون محاولة استنساخها، فما زال أمامنـا الكثير حتى نقول إننا نسير في اتجاه تجديد خطابنا الديني.. إن نظرة إلى مسار تطوير منهجيات الفكـر وآليات الدرس اللغوي تخـبرك بوضوح أين يقف الخطاب الديني على سُلم التجديد والمواكبة!

مـن جانب آخر الخطاب الديني مثل غيره من المناحي الفكرية والثقافية في مجتمعاتنـا يواجه إشـكالية تداخـل المفاهيم،[1] فإذا تحـدث عن المساواة والحريـة التبس الأمر هل الكلمات مستخدمـة بدلالتها اللغوية أم بدلالتها التراثيـة الموروثـة أم وفـق الاستعـمال السيـاسي المعـاصر! وإذا استدعـى الخطـاب الدعوي مفهوم الجهاد أو الولاء والبراء فأي مفهوم تراثي أو معاصر يقصد! فالمفاهيم ليست مجرد ألفاظ يمكن أن تُفهم، وتفسر بمرادفاتها كسائر الأسـماء والكلمات، أو نقـف على دلالتها من خلال قول شـارح أو منطقي برسمٍ أو حدٍّ على الطريقة الأرسطية، بل المفاهيم مستودعات كبرى للمعاني

(1) المفهوم بمعناه المنطقي هو «مجموعة الصفات والخصائص التي تحدد الموضوعات التي ينطبق عليها اللفظ تحديدا يكفي لتمييزها عن الموضوعات الأخرى، فمفهوم «الإنسان» بالمعنى الأرسطي مثلا هو أنه حيوان ناطق وماصدقاته هم أحمد ومحمد وسائر أفراد الناس، ولكننا ننظر إلى المفهوم بنظرة أوسع من نظرة رجل المنطق له؛ لأن المفهوم يتألف أيضا من المعاني والمشاعر التي يستدعيها اللفظ في أذهان الناس عندما يسمعونه أو يقرؤونه، ولهذه النظرة الواسعة ميزة في رأينا، وهي أنها تفسح المجال أمام القول بأن الغالبية العظمى من المفاهيم لا تقبل تعريفا جامعا مانعا بلغة المنطق، وإنما تتسم بمرونة مطلقة لا تحدها حدود ولا تقيدها قيود، فتتسع دلالتها أحيانا وتضيق أحيانا أخرى.» د. صلاح إسماعيل، توضيح المفاهيم ضرورة معرفية، موسوعة بناء المفاهيم، ج1. ص31، 32، دار السلام. القاهرة. الطبعة الأولى، 1429هـ - 2008م.

والدلالات كثيرا ما تتجاوز البناء اللفظي، وتتخطى الجذر اللغوي؛ لتعكس كوامن فلسفة الأمة، ودفائن تراكمات ذاكرتها المعرفية، وما انتهى إليه التطور التوظيفي للمفهوم واستقر عليه الوعي الجمعي.

ومن مظاهر إشكالية المفاهيم في خطابنا الديني تداخل والتباس المفاهيم في عقل الملقى والمتلقي فقد يريد المتحدث أو الكاتب من المفهوم دلالة ويدرك السامع أو القارئ دلالة أخرى لهذا المفهوم وفقا لخلفياته الثقافية والاجتماعية، ويتجلى هذا الخلط والارتباك عند المناقشة، فكل طرف من أطراف الخطاب يحتفظ في ذهنه بدلالة خاصة، فيصبح الحوار أحيانا نوعا من حوار «الطرشان» حيث لم تعد الألفاظ بإزاء دلالات محددة، وإنما تختلف الدلالة من ذهن إلى آخر، فلكلٍّ فهمه الخاص لغياب الأرضية الواحدة في التعامل مع المفهوم، والإمعان في تغييب المشترك الثقافي ورفض التلاقح الفكري بين الخطابات المختلفة، فتقع ظلال للمفهوم على ذهن كل طرف مخالفة لتلك التي وقعت على ذهن الطرف الآخر، وهذا ما يلاحظ في واقعنا العربي من إعادة مناقشة قضايا بعينها مرات ومرات دون الوصول إلى معانٍ مشتركة أو نتائج ننطلق منها.

وستظل إشكالية المفاهيم قائمة في خطابنا الديني ما دام هناك حالة من الخلط بين دلالة المفهوم والمصطلح والاسم في دلالته اللغوية، وما دام إطار المفاهيم المتداولة غير محدد زمنا وبيئة، وما دمنا لا نقف على المصادر المشكِّلة لمفهومها.. ليجد العقل المسلم أنه أمام خليط من الأصول والماهيات، وهنا تظهر إشكالية المفهوم وحاجته إلى توضيح وتدقيق كضرورة منهجية ومعرفية لضبط الخطاب الديني.

أضف إلى ذلك تزايد مساحات الحرْفيّين داخل بنية الخطاب الديني الرسمي، ومن أوضح النماذج التي تُعرَّف بهم في التراث ما قاله ابن الجوزي في كتابه تلبيس إبليس: «كان بعض مشايخنا يروي الحديث أن النبي ﷺ نهى عن الحلق قبل الجمعة، بإسكان اللام في الحلق، وأخبرني أنه ظل أربعين سنة لا يحلق رأسه قبل الصلاة، فقلت له: إنما هو جمع حلقة وهو الاجتماع في حلقات في المسجد، وكان ابن صاعد كبير القدر في المحدثين لكن ما كان يفهم جواب فتوى، وكان ابن شاهين قد صنف في الحديث مصنفات كثيرة أقلها جزء وأكثرها التفسير وهو ألف جزء وما كان يعرف في الفقه شيئا.» هذا النمط الحرفي التراثي الذي لا يدرك الطبيعة الاحتمالية لمعنى المفردة المعجمية ما زال موجود في عصرنا.. فكيف يتعاطى من يعجز عن استيعاب تلك الاحتمالية اللغوية مع الدراسات اللغوية الحديثة التي تقول بأن المفردات اللغوية لا تشير إلى موجودات خارجية، تُحيل عليها مباشرة، لكنها تشير إلى مفاهيم ذهنية مستقرة في عقولنا عن العالم الخارجي. فما زال الخطاب الإسلامي الحرفي - على نقيض ذلك - يرى ألفاظ اللغة العربية تدل على المعاني دلالة حرفية تطابقيّة، أو بعبارة القدامى الاسم هو المسمى فالعلاقة بين اللفظ والمعنى علاقة ذاتية جوهرية تختفي معها المستويات الدلالية للغة، فتتمسك تلك الخطابات بحرفية في فهم النصوص، وتدعى جمود المفاهيم عند معانٍ بعينها، مدعية امتلاكها لحقيقة المعنى مُقصيةً غيرها من الخطابات، موحدةً بين المستويات الدلالية مغلقة باب التأويل، ومتجاهلة طبيعة اللغة العربية التي حملت دلالات ذهنية لا وجود لها في الواقع من العنقاء والغول وغيرها مما ليس له مدلول عيني واقعي، ويتنكر مثل هذا الخطاب من طبيعة بناء المفاهيم التي تكتسب خصوصية من المحيط الثقافي

والفكري والاجتماعي الذى تنشأ فيه، فيغض الطرف عن حقيقة كون البيئة إحدى أبرز مُشَكِّلات المفاهيم.

وفي مقابل القابع الجامد محاولات عصرنة باستخدام ألفاظ حداثية في توصيف ممارسات وتلفيق شكلي متساهل بين الوافد والموروث يحاول إدماج بعض المفاهيم الوافدة عن الأقليات والمرأة والحريات والمساواة والمواطنة في الخطاب الديني ليتماشى مع الخطاب العام للدولة، لكنها لا تعدو قشرة سطحية بلا أدنى عمق سرعا ما تزول مع أول احتكاك.

وبين صراع فكري ثقافي دائر اليوم بين وافد مغترب وقابع متجمد اتسعت الهوة بين مرسلي الخطاب الديني، ومستقبليه الذين تأثروا بخطابات دينية وثقافات وافدة، وزاد الطين بلّه الخطاب الإعلامي الذي لا يحرص على خطاب حواري هادئ يكشف المفاهيم إلى خطاب سجالي صاخب يوسع دائرة الحِجاج والتخاصم والخلاف والتشتت والصراع حول ما أقصد إليه أنا، وما تقصد إليه أنت.. وستظل المفاهيم في الخطاب الديني تعاني الخلط واللبس الذي تعاني منه الأمم في أطوار تراجعها الفكري والمعرفي والثقافي، وسيظل تداخل المفاهيم في خطابنا الدعوي أحد أبرز أوجه أزمتنا المعاصرة، فما زالت مفاهيم الجهاد، والجماعة، والهجرة، والحرية، والمساواة، والولاء، والبراء مفاهيم ملتبسة في العقل المسلم ما لم نؤسس لبنية مفاهيم نابعة من بيئتنا الخاصة وثقافتنا المعاصرة، فلا تقف المفاهيم عند زمن بعينه بل تتحرك مع العقل المسلم الذي ينبغي أن يكون في حالة حراك دائم..